مُلحد على سجادة الصلاة!

«١»

«إذا كان مصطفى محمود قد ألحد فهو يلحد على سجادة الصلاة»!

هكذا وصفه الشاعر كامل الشناوي، وأضاف: «كان يتصور أن العلم يمكن أن يجيب عن كل شيء، وعندما خاب ظنه مع العلم أخذ يبحث في الأديان بدءًا بالديانات السماوية وانتهاء بالأديان الأرضية ولم يجد في النهاية سوى القرآن الكريم».

قرأ الشناوي صديقه مصطفى من الداخل قبل أن تظهر هذه الحقيقة للعوام والعيان، فقد رحل الشناوي قبل سنوات من انتهاء رحلة مصطفى محمود من الشك إلى اليقين.

تلك الرحلة التي استمرت ثلاثين عامًا كاملة، قضاها في البحث عن الله! قرأ خلالها عن البوذية، والبراهمية، والزرادشتية، ومارس تصوف الهندوس، لكن رغم كل ذلك لم يُلحد بقدر ما كان يبحث عن إجابات جديدة لأسئلة قديمة، لم يكن راغبًا في أسئلة نمطية وإجابات مكررة.

كان مفكرًا بحق، ونحن لا نحتفي بالمفكرين، ولا نُنزلهم منازلهم، ولا نقتفي آثارهم، هو نموذج لم نعهده.

لم يكن تصنيفه سهلا بل كان عصيًّا على التصنيف، ونحن نعشق القوالب الثابتة، ولا نحب أن نرهق أنفسنا عناء التفكير في من هم خارج الإطار والنمط المتكرر، وهذه هي معضلة

مصطفى محمود الذي لم تكن هذه القوالب ترضيه أو تُلجمه أو تحدد مساره.

نحن اعتدنا على المفكر التليفزيوني، ذلك المفكر الذي لا نجد له أي إنتاج فكري سوى تفكيره أمام كاميرات التليفزيون، ولم يُضبط يومًا يفكر خارج الاستوديوهات!

لذلك عجزنا عن فهم الدكتور مصطفى محمود، الرجل الذي وهبَ حياته باحثًا حقيقيًّا عن سر الحياة، وما بعد الموت، فصار من رجل ضلَّ طريقه إلى عالم يسير الناس خلفه.

وقد ظهر ذلك جليًّا في برنامجه الأشهر «العلم والإيمان». في هذا البرنامج وجد مصطفى محمود ضالَّته في التواصل مع البسطاء، ووجد فيه البسطاء رجل العلم الذي يثبتهم على طريق الإيمان الذي يبحثون عنه.

المدهش أن هذا البرنامج الأشهَر في تاريخ التليفزيون المصري ما كان ليظهر لولا الصدفة!

فحين عرض مصطفى محمود الفكرة على مسؤولي التليفزيون تم رصد ميزانية محددة من أجل إنتاج كل حلقة وهي ثلاثون جنيهًا فقط لا غير! وبالتالي لم يكن ممكنًا خروج هذا البرنامج إلى النور، وتوقَّف المشروع قبل بدايته، وكاد ينتهي لولا أن أحد رجال الأعمال تحمَّس للفكرة وقرر أن يتبرع لإنتاجها!

وظهر البرنامج بموعده الثابت مساء الإثنين بموسيقى الناي الحزينة التي ما زالت عالقة في الآذان، وبصوره التي لم تغادر الأذهان، وبمعلوماته الفياضة التي ارتبطت وتربَّت عليها أجيال كثيرة، لكن بعد سنوات من النجاح الصاخب -وغير المعتاد- صدر القرار بوقف البرنامج بقرار من وزير الإعلام، وقيل إن السبب ضغوط من العدو الصهيوني، لكن ربما رأى النظام أن

شعبية مصطفى محمود تمثل خطرًا عليه ليس لأنه ينافسه لكن لأن النظام لم يكن راغبًا في ظهور زعامات فكرية تحضّ الناس على التفكير.

«٢»

كان يقف طويلا أمام أجساد الموتى داخل المشرحة، ويعشق تشريح الجثث لدرجة عجز أقرانه وأساتذته عن فهمها!

فلم يذهب إلى كلية الطب طامعًا في لقب «الدكتور فلان» كسائر أقرانه، لكنه حين اختارها أراد أن يُشرِّح النفس البشرية ليعلم ما تُخفيه، ويمارس هوايته التي مارسها مذ كان طفلا في بيت أبيه، وقرر أن يُنشئ داخل المنزل معملًا صغيرًا يصنع فيه الصابون والمبيدات الحشرية ليقتل بها الحشرات، ثم يقوم بتشريحها!

لم تكن علامات النبوغ ظاهرة لأساتذته قدر ما كانت علامات الاختلاف والتفرد بارزة كالشمس في وضح النهار، فلم يكن طالبا عاديًّا -ونحن نفضِّل العاديين- حتى يسهل على الأساتذة تقييمه وتقويمه.

فقد بدأ حياته متفوقًا في الدراسة، حتى ضربه مدرس اللغة العربية، فغضب وانقطع عن الدراسة لمدة ثلاث سنوات إلى أن انتقل هذا المدرس إلى مدرسة أخرى فعاد لمتابعة الدراسة.

وحين مرض والده ثم توفِّي بعد أن أصيب بالشلل، قرر مصطفى أن يحقق حلم والده ويصبح طبيبًا، وأن يتخصَّص في الأمراض الصدرية، فنجح وتفوق والتحق بكلية الطب، وتخرج فيها عام ١٩٥٣، وعاش في «ميت الكرماء» بجوار مسجد

«المحطة» الشهير الذي يعد أحد مزارات الصوفية الشهيرة في مصر، مما ترك أثره الواضح على أفكاره وتوجهاته.

لكنه بعد سبع سنوات قرر أن يتفرغ للكتابة وشق له طريقًا أَعْجَزَ مَن يأتي بعده عن استكماله، فألَّفَ ٨٩ كتابًا منها الكتب العلمية، والدينية، والفلسفية، والسياسية، والاجتماعية، إضافة إلى المسرحيات، وأدب الرحلات، وتميز أسلوبه بالجاذبية مع العمق والبساطة.

«٣»

حين عرض عليه الرئيس السادات أن يكون وزيرًا رفض قائلًا: «أنا فشلت فى إدارة أصغر مؤسسة وهي الأسرة.. فأنا مُطلق.. فكيف بي أدير وزارة كاملة؟!».

كان صادقًا مع نفسه، ويدرك مَواطِن قوته، ولا يخجل من الاعتراف بمَواطِن ضعفه، فقد تزوج مرتين، الأولى انتهت بعد ١٢ عامًا، والثانية لم تستمر سوى أربع سنوات، وفي الحالتين رأى أنه لم يُحسن إدارة مؤسسة الزواج.

لم يُعلن يومًا أنه يملك الحق المطلق، ولم يدَّعِ أنه كان على صواب طوال الوقت، بل ظل طوال حياته يعترف بأخطائه، ويسجلها في كتاباته كى يتطهر منها، وكى لا يكررها أحد بعده، لذا كان يقول: «لست في موضع اتهام، وأن اعترافي بأني كنت على غير صواب في بعض مراحل حياتي هو ضرب من ضروب الشجاعة والقدرة على نقد الذات، وهذا شيء يفتقر إليه الكثيرون ممن يصابون بالجمود والغرور».

المشكلة لم تكن في شخص مصطفى محمود بل كانت أغلب الأحيان عند مريديه وخصومه، فالبعض حمَّله أكثر مما يحتمل،

أحيانًا بالتهويل في تقديره -لا أقول تقديسه- والبعض الآخر بالتهوين من قدره، والتشكيك في رجاحة عقله، ومحاولة إلصاق كل التهم به، لكنه في الحالتين خرج فائزًا، فقد ظل الكاتب اللغز الذي يبحث الجميع عن حل قاطع مانع يصلون به إلى حقيقة هذا الرجل الذي شغل الدنيا بأفكاره.

فهو لم يملك سوى أفكاره، وشهرته كلها حققها بفضل هذه الأفكار التي بعضها كان صوابا، وبعضها جانبه فيها الصواب، لذا فهو مُتهم دائمًا بالاختلاف، ومضبوط بأداة الجريمة وهي القلم، وعليه شهود جاهزون وهم خصومه في الأفكار.

لو لم يجد مصطفى محمود شيئًا يبحث عنه ربما مات كمدًا، لذا كان يردد دائمًا: «أريد لحظة انفعال.. لحظة حب.. لحظة دهشة.. لحظة اكتشاف.. لحظة معرفة فمن دون هذه اللحظات لا أجد لحياتي معنى، فحياتي من أجل أكل العيش لا معنى لها».

obeikandl.com

أولياء بلا أضرحة

«إننـي ومعي جيل كامل أريد فقط أن أفهم أولا.. وأسـتمع.. وأناقش.. وأتسـاءل.. وأشـكّ.. وأبحث.. وأفكر.. وأوازن ثم -في النهاية- أصل إلى رأي».

محمود عوض

obeikandl.com

obeikandl.com

الحفَّار!

«١»

وصل صالح إلى مقهى «بترو» في ذلك اليوم مبكرًا، فوجد أمامه نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وأمامهما البحر بكل امتداده، والكورنيش خاليًا من المارَّة ومن السيارات في ذلك الوقت من الصباح، وفي المقهى عدد من الرواد لا يزيد على أصابع اليدين، وعندما اقترب منهما كانا غير منتبهين وكل منهما يضع تحت يده فوق المائدة عددًا من مجلة «الكواكب» التي كانت قد صدرت في هذا اليوم.

ألقى صالح بالتحية، فجاءه الرد فاترًا، وجلس إليهما فإذا بالفتور يسرى إليه، ظن أن ثمة ما يشغلهما، فهمَّ بالانصراف، فإذا بتوفيق الحكيم يهتف به غاضبًا: «إيه اللي انت عملته ده يا أستاذ؟!».

بَدَت كل علامات الدهشة على وجه صالح قبل أن يقول مخاطبًا الحكيم: «هو أنا عملت إيه يا أستاذ؟!».

فصاح الحكيم قائلا: «ليه سمّيت اللي انت كاتبه ده كاريوكا؟!».

فرد صالح مقاطعًا وهو مذهول: «لأنها تحية يا توفيق بك».

فإذا بنجيب محفوظ يقاطعه والأسى يقطر من بين شفتيه: «طب ما تسميها قصة راقصة يا أخى»!

نظر إليهما صالح وهو لا يعي ما يسمع، وانهال عليه

التقريع من كليهما، لكنه أنصت في إجلال ليتعلم درس عمره من العم نجيب محفوظ الذي مال نحوه وقال له: اللي انت كاتبه ده أدب.. أنا لو سمِّيت «اللص والكلاب» محمود سليمان -الذي أطلقوا عليه لقب السفاح في الستينيات- ماكانتش بقت رواية!

ثم أشعل العم نجيب سيجارة حان موعدها، وقال في ابتسامة حانية: «وبرضه كانت حتبقى كاريوكا، مش حد تاني»!

لقد منحه سر الصنعة، وتعلم صالح مرسي الدرس الأهم في عمره، وربما كان ذلك اليوم هو مفترق الطرق الذي غيَّر مجرى حياته لينتقل من قاصٍّ جيد إلى صانع أدب جديد.

كانت مذكرات كاريوكا هي البداية، لكن صالح مرسي قاوم كتابتها كثيرًا، فقد كانت المرة الأولى في نهاية الخمسينيات حين ذهب إلى كاريوكا وقال لها: «نفسي أكتبك» فوافقت، وهرب ونسيَ أو تناسى، ثم عاد وكرر الطلب بعد تسع سنوات، فوافقت ثم اختفى للمرة الثانية، لكنه عاد بعد أسابيع قليلة ليبدأ معها تسجيل رحلة حياتها في عشرين ساعة، لتُنشر في مجلة «الكواكب» منذ قرابة نصف قرن، لكن المدهش أن هذه المذكرات لم تُنشر في كتاب، بل إنها اختفت!

نعم، اختفت، فحين ذهبتُ إلى دار الكتب والوثائق وجدتُ أن الأعداد التي نُشرت فيها المذكرات في «الترميم» -باستثناء أعداد قليلة- وبالتالي لا يمكن الاطلاع عليها أو تصويرها، أما في مكتبة الإسكندرية فلم أجد سوى ست حلقات فقط، فاتجهتُ إلى سور الأزبكية وسور السيدة زينب حتى عثرت على أجزاء من هنا وأجزاء من هناك، وبعد رحلة بحث طويلة وصلت إلى المذكرات وحصلت عليها كاملة بكل ما فيها من أسرار ومفاجآت، وأعدت

نشرها في جريدة «التحرير».

«٢»

تعلم صالح الدرس من نجيب محفوظ، لكن قبل سنوات كان قد تعلَّم درسًا آخر حين تعرف على يوسف إدريس!

فحين هبط صالح إلى القاهرة في العشرين من ديسمبر عام ١٩٥٥ قادمًا من الإسكندرية لم يكن قد أتم عامه السادس والعشرين، ولم يكن يدري ماذا يفعل، فقد وُلد في مدينة كفر الزيات بمحافظة الغربية في فبراير عام ١٩٢٩، وعمل بحَّارًا، لكنه اكتشف أنه لم يعد من الممكن أن يستمر في عمله في البحر، وأدرك أنه كان يراقب الحياة من حوله كأنه يشاهد فيلمًا أو مسرحية، فقد كان يشاهد البحر لكنه لم يكن يومًا جزءا منه.

شخص واحد فقط كان قد تعرف عليه، وعرض عليه مساعدته، كان هذا الشخص هو الفذّ يوسف إدريس.

كان إدريس أول من قرأ لصالح قبل أن يحضر من الإسكندرية وأشاد به وقال له: قرأت «زقاق السيد البلطي»، و«الحياة تسير»، و«خمر وناس»، و«الأمواج»، وحين قرأتها تغيَّر رأيي فيك تمامًا، فأنت لست بكاتب قصة فقط، ولا أنت مُجيد فقط، ولكن مستواك غير عادي في الكتابة، أنت فنان.

كانت الخطابات المتبادَلة بين يوسف إدريس وصالح مرسي لها الأثر الأكبر في قراره بترك العمل في البحر، والالتحاق بالعمل في مهنة أخرى لكنها أيضًا متلاطمة الأمواج.

كانت كلمات يوسف إدريس بمثابة نقطة تحول كبيرة في حياة صالح مرسي؛ فقد جعلته أكثر ثقة بما يكتب، خصوصًا

أن إدريس كان حادًّا في نقده، لاذعًا في رأيه، وبالتالي فشهادته وسام.

«٣»

وجد صالح مرسي نفسه في أدب الجاسوسية، فقد برع وتألق وبزغ نجمه في هذا النوع من الأدب الذي لم يكن معروفًا قبله، فهو الأب الشرعي لهذا النوع من الأدب الذي صار في ما بعد واحدًا من أكثر الأعمال جذبًا للقراء والمشاهدين!

فبعد أن كتب قصة حياة «كاريوكا» ومن بعدها ليلى مراد وجد أن عليه أن يتفرغ للأدب، ولكن يجب أن يبتكر نوعًا جديدًا لم يعهده القراء، فكتب قصته البديعة «الصعود إلى الهاوية» في نهاية السبعينيات، وفي مطلع الثمانينيات كتب رائعته «دموع في عيون وقحة»، وبعدها كتب «الحفَّار»، و«رأفت الهجان» الذي يعد أشهر أعماله، ومن أشهر الأعمال في تاريخ الدراما التليفزيونية.

أهم ما ميَّز العم صالح مرسي أنه شق طريقًا لم تعرفه الكتابة في مصر من قبل، وسار فيه بمفرده ثم جاء الناس بعده، فصارت أعماله من كلاسيكيات الدراما وظلت من علامات شهر رمضان لسنوات طويلة، وفي ذات الوقت صارت لها مكانة أدبية رفيعة المستوى، لكن الأهم أن قصصه ليست من وحي خياله وإنما هي من وحي بطولات حقيقية وأبطال حقيقيين من لحم ودم، من بينهم جمعة الشوان أو أحمد الهوان البطل الذي هان على الجميع، وعاش زاهدًا يسكن في شقة متواضعة، لكنه لم يسأل الناس إلحافًا رغم مرضه وضعْف دخله، وعدم سؤال المسؤولين عنه، لكن «هيَّ دي مصر يا عبلة» مثلما قالها عمنا صالح مرسي!

الجبل

«١»

حين أُطلق الرصاص على جمال عبد الناصر في حادثة المنشية بالإسكندرية، استدعى علي أمين رئيس تحرير «أخبار اليوم» آنذاك، الصحفي الشاب فتحي غانم، وقال له: ألست قصَّاصًا؟

نريدك أن تذهب إلى بيت المتهم بالاعتداء على عبد الناصر في حي بولاق وتكتب لنا صورة قلمية لما تراه. وراح غانم ووصف ما شاهده ببساطة ووضوح وواقعية: «سُلَّم في بيت قديم متآكل، حجرة بها سرير فوقه مفرش كاروهات، مشنة عيش، ترابيزة خشب متواضعة، امرأة صغيرة السن تحمل طفلا رضيعا في عيونها ذهول وخوف شديدين، ومن حولها أعداد ضخمة من رجال الأمن».

هاجت الدنيا وماجت بعد أن نُشرت تلك الصورة القلمية في «أخبار اليوم» -على حد تعبير سيدة الكتابة سناء البيسي- لدرجة أن عبد الناصر أشار إلى أن ما كتبه ذلك الصحفي قد أثار التعاطف المبالَغ فيه مع المتهم!

المدهش أنه قبل ثلاثين عامًا وتحديدا عام ١٩٢٤ كانت الأجواء متشابهة إلى حد التطابق.

فقد أطلق طالب بكلية الطب النار على سعد زغلول في أثناء مروره في الإسكندرية، وكانت هذه الحادثة سببًا رئيسيًّا في تعلُّق الشعب الشديد بزعيم الأمة الذي شعروا أنهم كادوا

يخسرونه بسبب مختلّ.

وفي نفس اليوم الذي أُطلق عليه «يوم الهول» رحل أحد أعلام الأدب، مصطفى لطفي المنفلوطي.

وقبل شهور تم إلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا، وتحديدًا في شهر مارس، وتمت أول انتخابات في ظل دستور ١٩٢٣، وحصل حزب «الوفد» على الأغلبية البرلمانية وكذلك في مجلس الشيوخ، وتشكلت وزارة سعد زغلول.

في هذه الأجواء شديدة السخونة وُلد صاحب «الساخن والبارد» محمد فتحي غانم يوسف دياب.

«٢»

فتحي غانم كان جبلا بحق، فعلى الرغم من كثرة ما تعرَّض له من عسف وقهر وظلم وغبن، لم يفقد ظله.

فلا تندهش عندما تعرف أنه تم حذف ٢٥٠ صفحة من إحدى رواياته، ومن أخرى ١٣٠ صفحة، ومن ثالثة ٥٠ صفحة، ومن رابعة ٣٠ صفحة -مثلما كشف الناقد شعبان يوسف- وهكذا ظل دائمًا يتعرض للاضطهاد ومحاولات الإبعاد والتضييق والمضايقة، ربما لشعور البعض بخطورة ما يكتب.

فحين صدرت روايته «الرجل الذي فقد ظله» قيل إن بطلها الحقيقي الأستاذ محمد التابعي، بل إن التابعي ذاته اتصل به عقب صدور الرواية وقال له: بعض الأصدقاء قالوا لي إنك كتبت رواية عني!

ونفس الشيء تكرر في روايته «زينب والعرش» التي تشعر أن بطلها الحقيقي هو الأستاذ مصطفى أمين. وقيل أيضًا إن رواية

«تلك الأيام» تعبّر عن شخصية الأستاذ هيكل. بل قيل إن رواية «الأفيال» هي تعبير عنه نفسه. أما الشخصية التي أوحت إليه برواية «حكاية تو» فهو اليساري المعروف شهدي عطية وما تعرض له في السجن، لذلك ظلت الرواية ممنوعة ١٣ عامًا دون إبداء أسباب!

لكن رغم هذا التماسّ الشديد بين أبطال رواياته ونجوم الصحافة وأعلامها فإن فتحي غانم كان دائمًا ينتصر للفن والأدب وإلا ما بقيت رواياته حيَّة بيننا.

فقد ظل دائمًا يحتفظ بمساحة خاصة لنفسه ولأدبه، حيث يجلس منفردًا بالقارئ دون حسابات أو حواجز يرسم له الواقع كما يراه، ويحلله ويفسره ويعطيه رؤية كاملة ومكتملة لما يجرى حوله.

صورة قد لا ترضَى عنها السلطة، وقد تعاقبه بسببها، لكنه لم يكن مشغولا برضا السلطة أو سخطها، هو فقط يخاطب الناس، ويرى أن أي أدب صادق هو وثيقة تعبر عن المجتمع وتكشف خباياه، لذلك فأدب فتحي غانم من «لحم ودم»، فكل من كتب عنهم تشعر أنك تعرفهم، بل ربما لا تبذل جهدًا لتحدد مَن هم ومواقعهم، وربما لهذا السبب لم ينصفه أحد، ولم يحصل على ما يستحق وتعرَّض لكل محاولات التجاهل، لكنه رغم ذلك صنع مجده من أدبه رغم أنه تولى أعلى المناصب الصحفية سواء كرئيس تحرير أو رئيس مجلس إدارة لعدد من الصحف والمجلات منها «الجمهورية»، و«روزاليوسف»، و«صباح الخير»، علاوة على وكالة أنباء الشرق الأوسط.

«٣»

لم يكن غانم على كثرة المناصب التي تولاها معبِّرًا عن أحد سوى نفسه، فلم يكن متحدثًا عن السلطة، ولم يشغل نفسه بمعاداتها، لذلك نجا من الاعتقال!

فذات يوم نشرت جريدة «الأهرام» في أثناء ثورة التصحيح -كما أطلق عليها الرئيس السادات- تسجيل مكالمة هاتفية بين علي صبري أمين اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي حينذاك، ومحمد فائق وزير الإعلام في ذلك الوقت، وكان هناك خلاف مع السادات حول الوحدة مع ليبيا، وكان علي صبري يقول: الراجل عايز يعمل إيه؟ مافيش حد يكتب في البلد؟ فردّ محمد فائق: نكلم فتحي نخليه يكتب؟ فأجابه علي صبري: هو فتحي غانم ده بيعمل حاجة.. دا آخر مَن يعلم في المسائل دي.

لولا هذه الكلمة التي قيلت بالصدفة لأُلقي فتحي غانم في غياهب السجون، رغم أنه كان رئيسًا لمجلس إدارة دار التحرير -«الجمهورية» حينذاك.

فتحي غانم واحد من جيل جبار مليء بجبابرة الأدب والصحافة، من نجيب محفوظ ويوسف إدريس إلى يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس، ومن محمد التابعي وهيكل إلى مصطفى وعلي أمين، لكن هذا الجيل كان يجمعه شيء آخر لم يكن يدركه فتحي غانم إلا حين زار موسكو بصحبة خمسة من كبار مبدعي مصر آنذاك ولاحظوا حجم الحفاوة الشديدة والاحترام الرسمي، كأنهم رجال دولة في زيارة رسمية وليسوا أدباء ومثقفين.

شغلت هذه الزيارة بال فتحي غانم كثيرًا، وكان حريصًا على الاستفسار عنها من أركان السفارة المصرية في موسكو، وقد وجد الإجابة التي لم يكن ينتظرها، فقد قيل له: إن السوفييت تعاملوا معكم باعتباركم ضباطًا في المخابرات المصرية!

ويروي فتحي غانم هذه الواقعة ضاحكًا: «كنا سعد الدين وهبة، وكامل زهيرى، وحسن فؤاد، ويوسف إدريس، وعبد الرحمن الشرقاوي، وأنا. كانت بيننا اختلافات فكرية كثيرة، لكن شيئًا واحدًا فقط جمع بيننا، هو أننا كنا جميعًا طولا بعرض، وكل واحد يرتدي بدلة كاملة، ورابطة عنق فاخرة، ويضع على عينيه نظارة شمس سوداء من ماركة بيرسول. ولذلك كان من الطبيعي أن يتصور المسؤولون السوفييت أننا من رجال المخابرات، لأن صورة كل منهم لم تخرج وقتها عن الصورة النمطية لرجل المخابرات».

«٤»

المدهش أن أغلب أبطال روايات فتحي غانم أطلق عليهم نفس الاسم وهو «يوسف»، وقيلت أسباب كثيرة تفسر ذلك، بل إن فتحي غانم نفسه كان في كل مرة يفسر هذه الظاهرة بسبب مختلف!

فقيل إن السبب في ذلك هو تأثره بالمفكر الكبير توفيق الحكيم الذي كان أغلب أبطال رواياته يحملون نفس الاسم وهو «محسن»، وقيل إنه بسبب تأثره بقصة سيدنا يوسف، عليه السلام، وقال البعض لأن جده اسمه يوسف، وقيل أيضًا إنه كان له أخ توفِّي اسمه يوسف، وكان مرتبطًا به فقرر أن

يسمي كل مَن يحبهم من أبطال رواياته «يوسف»، وهناك من قال إن السبب في ذلك هو كسل الكاتب في البحث عن اسم جديد!

أشعر كلما قرأت روايات الجبل فتحي غانم أنه يحمل براءة الأطفال وجرأتهم في الانتقاد دون حسابات ولا تعقيدات ولا محاولات تجميل أو افتعال.

فقد دخل فتحي غانم في معارك كثيرة وكبيرة مع كبار المبدعين بسبب جرأته المبالَغ فيها -أحيانًا- فهاجم إحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله، وقال مخاطبًا يوسف السباعي: «إن العلب الباهظة التي يضعها لتغليف كتبه من الأفضل أن تصبح علب شوكولاته»!

openkandl.com

أفكار ضد الرصاص!

«١»

وليٌّ من أولياء الكتابة لكنه لا ينتظر مريدين!

يكتب كأنه يلعب، لديه خفة راقص باليه، ورشاقة لاعب تنس، وجاذبية نجم، وعقلية مفكر، وقلم ناقد، ورؤية فيلسوف لكنه لم يتفلسف أبدًا.

يقول دائمًا: «إنني ومعي جيل كامل أريد فقط أن أفهم أولا.. وأستمع.. وأناقش.. وأتساءل.. وأشكّ.. وأبحث.. وأفكر.. وأوازن ثم -في النهاية- أصل إلى رأي».

هذا هو محمود عوض، مختلف لكن لا خلاف عليه، متمرد بقلب طفل، فذّ في تواضعه، عبقريّ في بساطة تعبيراته، كلماته صادمة لكنها مُحبة، وصادقة، وعاقلة.

كتب «الحرب المستحيلة» لكن أسلوبه في الكتابة كان هو المستحيل ذاته، حاور أم كلثوم فأغضبها، وكان من أقرب الأحياء إلى قلب موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب لكنه حين كتب عنه كاد يخسره، وحين طلب منه صديق عمره عبد الحليم حافظ أن يكتب كتابًا عنه رفض.

رغم صداقته الحميمة بأغلب نجوم عصره «أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وتوفيق الحكيم وطه حسين وإحسان عبد القدوس» وغيرهم فإنه ظل نغمة مختلفة، وصوتًا منفردًا، فلم يجعل الصداقة تؤثّر على الكتابة، ولم تتسلل علاقاته الشخصية

إلى كتاباته إلا ليعرِّف القارئ الحقيقة، فحين أجرى حوارا مع أم كلثوم سأله إحسان عبد القدوس رئيس تحرير «أخبار اليوم» في ذلك الوقت: «هل أطلعتَ أم كلثوم على الحوار قبل نشره؟»، فردّ على الفور: «منذ متى نسمح لأحد بالتدخل في عملنا؟»، غير أن إحسان عاجله بسرعة: «إنها ليست أي أحد، إنها أم كلثوم».

وافق عوض على عرض الحوار على أم كلثوم، وعندما زارها في منزلها أبدت اعتراضًا على جملة يفتتح بها مقدمة الحوار معها، فغضب وسألها: «مَن منَّا يفهم في الغناء أكثر.. أنا أم أنتِ؟» فردت قاطعة: «أنا طبعًا»، فقال لها بسرعة: «إذن فالكتابة عملي، وأنا أفهمه جيدًا، ولن أغيِّر المقدمة».

لكن أم كلثوم هي التي غيَّرت طريقتها معه، وموقفها منه، واحترمت موهبته، وقدَّرت إخلاصه لعمله، وقدراته الخاصة، والاستثنائية، وامتثلت له.

«٢»

لكن قبل لقائه الأول مع أم كلثوم بقرابة ربع قرن كان عبد الحليم حافظ قد حسم قراره بالالتحاق بمعهد الموسيقى العربية قسم التلحين.

.. وكان محمد عبد الوهاب يقدم خامس أفلامه «موعد مع الحب» وغنَّى فيه ثلاث أغانٍ هي «يا مسافر وحدك»، و«بلاش تبوسني في عنيَّا»، و«رُدّ عليَّا»، وظهرت معه لأول مرة الفنانة مديحة يسري.

.. وشاركت أم كلثوم في بطولة فيلم «عايدة» مع يحيى

شاهين وماري منيب، عن قصة عبد الوارث عسر، وكان الفيلم يمثل محاولة لصنع أوبريت عربي عن أوبرا عايدة، لكن التجربة باءت بالفشل.

.. وانتقل توفيق الحكيم ليعمل مديرًا لمصلحة الإرشاد الاجتماعي في وزارة الشؤون الاجتماعية، لكنه استقال بعد ذلك.

.. وفي العام نفسه تم تعيين طه حسين مديرًا لجامعة الإسكندرية، إضافة إلى عمله الآخر كمستشار فني لوزارة المعارف، ومراقب للثقافة في الوزارة عينها.

.. وانتهت معركة العلمين بانتصار قوات الحلفاء، وصدر قرار بطرد أنور السادات من الجيش بتهمة العمالة مع قوات المحور.

في هذه الأثناء وُلد محمود عوض وتحديدًا في يوم الإثنين ٢٨ من ديسمبر عام ١٩٤٢ في مدينة طلخا بالدقهلية، وكان محبًّا للقراءة منذ صغره، وكادت تتسبب في رسوبه في دراسته، لولا قطعه عهدًا لأبيه بأن يصير تلميذًا متفوقًا، وقد وفَّى بوعده، فقد أرسل كمال الدين حسين -وزير التعليم آنذاك- خطابا إلى والده يضم شيكًا بمبلغ ٢٥ جنيهًا لابنه المتفوق، سلمه الوالد لمحمود ورحل بعدها بيومين مطمئنًّا على مصير ابنه.

وكبر محمود، والتحق بكلية الحقوق، ثم انطلق إلى «أخبار اليوم»، وبعد تخرجه رفض العمل بالنيابة العامة، مفضلا الاشتغال بالصحافة، وبعد ثماني سنوات من تخرجه أصبح نائبًا لرئيس تحرير «الأخبار»، وهو لم يكمل عامه الثلاثين.

ولكن الصدفة لعبت دورًا في نجوميته؛ فعندما تأخر أنيس منصور عن إرسال مقاله اليومي، الذي يُنشر في الصفحة الأخيرة من «أخبار اليوم»، وقرر عبد القدوس -وهو رئيس تحرير

المؤسسة العريقة آنذاك - تكليف هذا الصحفي الشاب بكتابة الصفحة الأخيرة وحده.

كان عقابا لمنصور الذي تسبب تأخره المتكرر في عدم إرسال الجريدة إلى المطبعة في الوقت المحدد، فأهدى إلينا هذا التأخير واحدًا من ألمع نجوم بلاط صاحبة الجلالة.

«٣»

لم أرَه يومًا، ولم تنشأ بيننا أي علاقة، لكنني أشعر بأنني مدين له بكل شيء، فلا أستطيع أن أكتب قبل أن أقرأ له، وربما أكون قد تأثرت به قبل أن أقرأ له حرفًا، وأحزن كلما تذكرت أنه كان بإمكاني أن أقابله وتقاعست عن المحاولة، مجرد شرف المحاولة كان يكفي، فلديَّ عدد هائل من الأسئلة كنت أود أن أطرحها عليه، ولا يعنيني أن أنشر إجاباتها، لكني كنت أريد أن أعلم وأتعلم من ناظر مدرسة في الكتابة.

محمود عوض لا يُعوَّض.

ربما أكون قرأت كتبه مرة واثنتين وثلاثًا، بل هناك كتب له قرأتها عشرات المرات لدرجة أني أحفظ مقاطع منها، وعلى رأسها كتابه الأروع «ممنوع من التداول» فلو لم يكتب محمود عوض سوى مقدمة هذا الكتاب لكان يكفيه، فهذا الكتاب لا بد أن يُدرَّس في الجامعات، ولا بد أن يقرأه الجميع، حتى يعلم الجميع حقيقة إسرائيل، وكيف تُدار من خلف الكواليس منذ اليوم الأول الذي عُقد فيه المؤتمر الأول الذي حضره ١٩٧ وفدًا من ١٥ دولة مختلفة وهم لا يعرف بعضهم بعضا ولكنهم جميعًا يمثلون جمعيات «حب صهيون»!

وكذلك كتابه الفذّ «أفكار ضد الرصاص»، الذي يشرح فيه قصة أربع جرائم قتل، مع سبق الإصرار والترصد، قتل عمد، ومع ذلك يخرج الجاني بعد كل جريمة بلا عقاب رغم أن القتيل معروف، وأداة القتل مضبوطة، وسبب القتل واضح، والشهود موجودون، والقاتل معترف، ومع ذلك فالجريمة يتم تسجيلها ضد مجهول!

فالقاتل في كل مرة مجموعة من الأشخاص، لكن السكين تحملها يد واحدة لها تفكير السلطة، وأسلحة السلطة وجبروت السلطة، والقتيل هو «كتاب» مجرد حبر على ورق، لكن صدر ضده حكم بالإعدام، وهذا الحكم صدر ضد أربعة كتب لقاسم أمين والكواكبي وطه حسين وعلي عبد الرازق. ويفسر عوض في كتابه سر اغتيال هذه الكتب بالذات.

كُتب محمود عوض بمثابة شربة ماء في صحراء، فلا تَدعْها تفوتك.